﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾

[مريم: 77 - 80]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

بعد استقصاءِ أحوالِ النَّاسِ يأتي ذكرُ حالِ الكافرِ المعاندِ لإنشاءِ التَّعجُّبِ منه

لَمَّا ذكرَ في الآياتِ السَّابقةِ تَوَعُّدَهُ سبحانه الكافرينَ بالعذابِ الشّديدِ، وتهديدَهُم بما يقطعُ القلوبَ في ذلكَ اليومِ بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾ [مريم: 75]، ثم ثنَّى بذكرِ المؤمنين بقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ [مريم: 76]، ناسَبَ أن يذكرَ مثالًا يُتعجب منه في الكفرِ بآياتِ اللّه تعالى، ممَّنْ تنكّبَ عن الطّريقِ السّويِّ، موبّخًا إياهُ، مُنْكِرًا عليه، وقدْ عطفَ على ما مرَّ منْ سياقٍ في أنَّ طلبَ الخيرِ يكونُ بالرّؤيةِ والتّبصرةِ؛ فهيَ السّبيلُ إلى أنْ يحيطَ المرءُ بالأشياءِ علمًا وخبرةً[1] بما يقولُ هذا الكافرُ، وما يدّعيهُ فسوفَ ينالُ جزاءهُ وفاقًا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾: (رأى) أَصْلٌ يَدُلُّ على نَظَرٍ وإبصارٍ بِعَيْنٍ أو بَصيرَةٍ، فالرَّأْيُ: ما يَراهُ الإنسانُ في الأَمرِ، وجَمعُهُ الآراءُ[2] والرُّؤْيَةُ: إدراك المَرْئيُّ، والرَّأْيُ: اعتقادُ النَّفسِ أحدَ النَّقيضين عن غلبة الظَّنِّ، وعلى هذا قوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ﴾ [آل عمران: 13]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 241.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأى).

والرُّؤْيا: ما يُرى في المنام[1]، والرُّؤْيَةُ بالعَيْنِ تَتَعَدَّى إلى مَفْعولٍ واحِدٍ، وبمعنى العِلْمِ تَتَعَدَّى إلى مَفْعولَيْنِ، وحقيقة الرُّؤْيَةِ في الآية: مُسْتَعارَةٌ لِلْعِلْمِ بِقِصَّتِه العَجيبَةِ، نُزِّلَتِ القِصَّةُ مَنْزِلَةَ الشَّيْءِ المُشاهَدِ بالبَصَرِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَقْوَى طُرُقِ العِلْمِ[2].

2) ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: أصلُ الآيةِ: العَلامةُ الثَّابتة، مُشتقَّة من التَّأَيي الَّذي هو التَّثبت والإقامة على الشَّيء[3] من قولك: تأَيَّيتُ بالمكان إذا أقمتَ به وثَبَتَّ فيه؛ ومن ثمَّ يُقال: لأجعلَنَّك آية، أي: عَلامة، ومِنْهُ سُمّيَت الآيَةُ من القُرْآنِ بذلك؛ لأنَّها عَلامَةٌ لانْقِطاعِ الكَلامِ الذي قَبْلَها والَّذي بَعْدَها، وتُطلَقُ على المَصْنوعِ المُعْجِبِ؛ لِأَنَّهُ يكونُ علامةً على إتقانِ صانِعِه أَو عَظَمَةِ صاحِبِه[4]، وكذلك تُطلَقُ على الحُجَّةِ المثبَتَةِ؛ لِأَنَّها علامَةٌ على ثُبوتِ الحَقِّ، وتُطلَقُ أيضًا على العِبْرَةِ، وهي أمرٌ وقع ومضى لكن بقي ما يُتَّعَظ به منه ويُتَّخذ مثلًا[5] والمراد بالآياتِ في الآية: القُرْآنُ[6].

3) ﴿عَهْدًا﴾: (عهد) أَصْلٌ يدلُّ على الاحتِفاظِ بالشَّيءِ وإحداثِ العَهْدِ به في أَشياء مُختلفَة: فمنها الحِفاظُ ورعايةُ الحُرْمَة، ومِنْها الوصيّة؛ وإنَّما سُمّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ العَهْدَ مِمَّا يَنْبَغي الاحْتِفاظُ بِه[7] والعَهدُ: الأمان، وكذلك: الالتِقاءُ والإلمامُ، يُقالُ: ما لي عَهْدٌ بكذا، والعَهْدُ أيضًا: المنزلُ الَّذي لا يكادُ القوم إذا انْتَأَوْا عنه رجَعوا إليه[8] والعهد كذلك: الميثاق[9] والمراد بالعَهْدِ في الآيةِ: الميثاقُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ الحقُّ سبحانه عن مقالةٍ من مقالاتِ الكفَّارِ الباطلةِ، ويردُّ على قائلِها أبلغَ ردٍّ، فيقول: انظُرْ مُتعَجِّبًا يا محمَّدُ ﷺ إلى هذا الَّذي كفَرَ بآياتِ القُرآنِ، وقال: واللَّه ليعطينّي

(1) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (رأى).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 156.
(3) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (أبي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أَيَى).
(5) الزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (إيي - إي).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 159.
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عهد).
(8) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح: (عهد).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة: (عهد).

اعتقادُ الكافرِ باستحقاقه النِّعَم عجيبةٌ من عجائبِ غروره وكِبرِه

اللَّهُ في الآخرةِ - على تقديرِ قيامِها - مالًا وأولادًا، مع كُفرِه باللَّه وتكذيبِه بآياتِه، ومِن جُملتِها آياتُ البعثِ بعدَ الموتِ، هل عَلِمَ هذا الكافرُ - المتألّي على اللَّه - عِلمَ الغَيبِ، فعَلِمَ أنَّ له في الآخرة مالًا وولدًا، أم له عهدٌ عند اللَّه بأنَّه سيعطيه ذلك؟! فليس الأمرُ على ما قالَ فهو مخطئٌ فيما يقولُه ويتَمَنَّاه، فستَكتُبُ الملائكةُ الحَفَظةُ بأمرِنا ما يقولُ هذا الكافرُ المفتري على اللَّه تعالى، وسنُجازيه في الآخرةِ على كَذِبِه وكُفرِه، ونزيدُ هذا الكافرَ في الآخرةِ عذابًا زائدًا؛ بسَبَبِ قَولِه الكَذِبَ على رَبِّه[1]، و"ذُكر أن هذه الآيات أنزلت في العاص بن وائل السهمي أبي عمرو بن العاص"[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ أسلوبِ الاستفهام وغرضُه:

الاستفهامُ تعريفٌ للجاهلِ وتذكيرٌ للعالمِ وتعجيبٌ من كفرِ الكافرِ

أورد النَّظمُ الكريم أسلوبَ الاستفهامِ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ قصدًا إلى لفتِ الذِّهنِ إلى هذه القصّةِ تعريفًا بها لمن يجهلُها، وتذكيرًا بها لمن يعلمُ، مستعملًا إياها في بيانِ العجبِ من صنيعِ هذا الكافرِ وكفره[3]، واستهزائه وتَهكُّمِه بيومِ البعثِ، وهذا مُؤْذِنٌ بغرابة حاله وشناعتِها وفظاعتِها أن تُرى، ويُتعجَّبُ منها[4]، وهي مؤذنة بالاستفهام الإنكاري في إنكار الواقع تنديدًا لحال ذلك الكافر المتلفّع بالغرور، الذي جحد بآياتنا[5].

والغرضُ من الاستفهامِ إثارةُ النّفوسِ، وتوجيهُ الأنظارِ نحوَ ما وقعتْ عليه الرّؤيةُ، أو المستفهمِ عنهُ؛ لاستحضارِ صورته في

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 617، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 411، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 159، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 500.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/ 245.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 159.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 279.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4682.

الأذهانِ، فإن تمكّنَ المعنى في النّفسِ كانَ الحكمُ عليه مُتقنًا رصينًا لمثوله فيها[1].

نوعُ الفاءِ ومعناها في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ إمَّا أن تكونَ عاطفةً مؤذنةً بإفادةِ التّعقيبِ، والمعنى أن أخبرَ بقصّةِ هذا الكافرِ المعاندِ عقيبَ قصّةِ أولئكَ[2] الّذين أهلكناهُم لتنكّبهم عن طريقِ الحقّ والهدى.

الفاء للعطفِ التَّعقيبي أو للعطف على مقدَّر، أو للتفريع على مجموعِ السَّابق

أو أنْ تكونَ عاطفةً على لفظٍ مقدّرٍ يقتضيه السّياقُ والمقامُ، فالاستفهامُ على تقديرِ (أنظرتَ فرأيتَ) ذلكَ الكافرَ بآياتِنا الباهرةِ الّتي يجبُ على كلِّ مشاهدٍ لها أنْ يؤمنَ بها ويصدّقها[3].

وإمَّا أن تكون تفريعيَّةً على ما تقدّمَ من قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ [مريم: 66]، وما اتّصلَ به من التّفريعاتِ والاعتراضاتِ، من لدنِ قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ [مريم: 68] حتّى قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: 76]، وقائلهُ متلفعٌ بغروره كغرورِ أصحابه في إمكانِ البعثِ والنّشورِ[4].

نكتةُ اختيارِ مفردةِ الرّؤيةِ:

رؤيةُ المشاهداتِ إحاطةٌ بالمعلومِ بطريقٍ حسيٍّ

استعملَ النَّظمُ الكريم لفظَ الرّؤيةِ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾؛ للإيذانِ بالإخبارِ؛ لأنّه لَمَّا كانت مشاهدةُ الأشياءِ ورؤيتُها وسيلةً إلى أن يحاطَ بها من جهةِ العلمِ، وصحّةِ الخبرِ عنها[5]، ومؤدَّاهُ الى التّعجيبِ من حالته البديعةِ، وجراءته المقيتةِ الشّنيعةِ[6]؛ أتى بهذا اللفظِ دون غيرِه من مرادفاته، ففي هذا اللفظ دليلُ الدَّعوى والدليل.

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام، ص: 291 - 292.
(2) السمين، الدرّ المصون: 7/ 634.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 279.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 158.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 39.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 279.

بلاغة التَّعبير المجازيّ في لفظ الرؤيّة:

الرؤيةُ إما من بابِ الاستعارة أو المجاز المرسل

استعمال لفظِ الرّؤيةِ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ استعمالٌ مجازيٌّ، وهو إمَّا منْ بابِ الاستعارةِ؛ كيْ يُعلِمَ السَّامعَ والمخاطبَ بتلكَ القصّةِ العجيبةِ ممّنْ كفرَ بآياتِنا، تنزيلًا للقصّةِ مَنْزِلَةَ الحدثِ المشاهدِ بالبصرِ؛ فهوَ منْ أقوى طرقِ العلمِ[1].

وإمَّا من باب المجاز المرسل، ففعلُ الرّؤيةِ علميّ قلبيّ، حيث أُطلقت الرّؤية على العلمِ الذّهنيّ، لعلاقةِ السّببيةِ من إطلاقِ السّببِ وإرادةِ المسبَّبِ[2].

دلالةُ التعبير بصيغة الفعل الماضي:

أثبتُ العلمِ المتحقّقُ وقوعُه

قولهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ فعلٌ ماضٍّ؛ معلّقٌ "بمثلِ المتعجّبِ منهُ، فيقالُ: أرأيتَ مثل الّذي صنعَ كذا، بمعنى أنّهُ من الغرابةِ بحيثُ لا يرى لهُ مثلٌ، فقد حفظَ شيئًا وغابتْ عنهُ أشياءُ"[3] وهذا المثلُ قد انقضى وتمّ فيما مضى من الزّمنِ.

وعليه فقولهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ بالفعلِ الماضي، دالٌّ على حصولِ الرّؤيةِ وثباتِها؛ بصريةً كانت أم عقليةً؛ لأنّ كفرَ هذا الكافرِ، وادّعاءَهُ وتهكمَهُ بأن يكونَ له مالٌ وولدٌ عندَ بعثه حقيقةٌ ثابتةٌ، يؤيدها سببُ النّزولِ في قصّةِ خبّابٍ، ومطالبته بدَيْنه من العاصِ بنِ وائلٍ، وإنكارُهُ ثمّ استهزاؤُهُ بقوله: "فإنّي إذا متُّ بعثتُ ولي مالٌ وولدٌ"[4]، كما هو معهود في تفاصيل القصّة.

نكتةُ إبهامِ المخاطبِ بالتَّاءِ:

الإيذانُ بأهميةِ القولِ لا القائلِ لتكرارِ وقوعِ القولِ المشابه

التَّاءُ في الفعلِ: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ للخطابِ، وهوَ خطابٌ صالحٌ لكلّ منْ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 159.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام، ص: 292.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 279.
(4) سفيان الثوري، تفسير الثوري، ص: 189.

يجوزُ أن يكونَ مخاطَبًا، ولا يرادُ به أحدٌ على التّعيين، ويجوزُ أنْ يكونَ خطابًا للرّسولِ ﷺ[1]، وهو من بعدِ ذلكَ خطابٌ لأمّته.

ونكتةُ عدمِ تعيينِ المخاطبِ على وجه الخصوص - وإنْ كانَ معلومًا مثلَما ورد في سببِ النّزولِ - ؛ لأنَّ هذه المقالةَ تحتملُ الحصولَ والتّكرارَ في زماننا، وفي كلِّ زمانٍ، فليسَ مهمًّا القائلُ قدرَ أهميةِ القولِ[2].

تعيينُ مفعولَي فعل الرؤيةِ:

المعنيُّ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ هو (العاصُ بن وائل) الّذي كفرَ بالقرآنِ[3]، فالموصولُ في موقعِ المفعولِ الأوّلِ، وجملةُ الاطّلاعِ على الغيبِ في محلّ المفعولِ الثّاني[4] لفعلِ الرّؤيةِ على معنى ألم ترَ هذا الكافرَ استدلالًا بالّذي رآهُ على هذه القضيةِ[5].

سرّ إيثارِ التّعريفِ بالاسمِ الموصولِ:

منشأ العجبِ زعمهُ أن يؤتى مالًا وولدًا

آثر النَّظم الكريم استعمالَ الاسمِ الموصولِ تعريفًا بقوله: ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾؛ للإشارةِ إلى ما في حيّزِ الصّلةِ من منشأِ العجبِ وسببِ الدّهشةِ من قوله المزعوم: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[6].

من معاني إيثارِ الصّلةِ والموصولِ في قوله: ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أنْ ينعى ويُشنّعَ على هذا المُشركِ المتعرّقِ في الشّركِ، وأن يشيرَ إلى قُبحِ فعله[7].

معنى الباءِ في الجارّ والمجرورِ:

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ دالةٌ على معنى

الباءُ مؤذنةٌ بملابسة الكافرِ للكفرِ بالآياتِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 159.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9174.
(3) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 194.
(4) السمين، الدرّ المصون: 7/ 634 - 635.
(5) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9174.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 159.
(7) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام، ص: 292.

الملابسةِ والملاصقةِ، وهو من المعاني الشَّائعةِ لها في كلامِ العربِ[1]؛ فهم قدْ رضوا بحالِ كفرِهم بالآياتِ، ومالوا إليه، ولابسوا ذلكَ الكفرَ؛ فكانَ أنِ استهزؤوا بيومِ الحسابِ، وادّعوا بإتيانِهم المالَ والولدَ افتراءً.

سرّ تقييد الكفر بالآيات:

زيادةُ التشنيعِ على الكافرِ بآياتِ القرآنِ خصوصًا

معنى الآيات في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ القرآنُ الكريمُ، والمعنى أنّهُ كفرَ بالآياتِ البيّناتِ الّتي نزلتْ على رسوله ﷺ، وكذّبَ بها، ومنْ جملتِها الآياتُ الدَّالةُ على البعثِ والنّشورِ والحسابِ[2]، وتخصيصُ التّكذيبِ بالآياتِ؛ لأنّها هي التي أُنزلت عليهم حججًا، وشواهدَ على الدّين الحقّ ورسالة نبوّة محمّد ﷺ، وإنكارُها هو الكفرُ بكلّ ما يترتّب عليها.

غرضُ جمعِ الآيات وإضافتها إلى نون العظمة:

تكتسي الآياتُ عظمتها من مصدرِها

جاء التعبير عن الآيات بصيغة الجمعِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾؛ لأنّه يريدُها أن تعمّ الآياتِ جميعًا، ومن جملتِها آيةُ البعثِ والنّشورِ[3]، وجاءتِ الآياتُ مضافةً إلى ضميرِ العظمةِ (نا) الدَّالّ عليه سبحانهُ؛ للدّلالةِ "على عظمتِنا بالدّلالاتِ البيّناتِ"[4].

دلالةُ عطفِ فعلِ القولِ على الكفر:

عطفُ القولِ على الكفرِ دليلُ الهزءِ

لَمَّا كانَ أمرُ ذلكَ اليوم مهولًا مفزعًا؛ فهتكَ أستارَ مقالاتهم، وبيّنَ وهنَها وضعفَها، كانَ من سلسلة تلك الأقوال مقالةٌ عجيبةٌ: ﴿وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[5]، فعطفهُ على فعل ﴿كَفَرَ﴾، أي: أنَّه كفر بآيات اللّه تعالى، ولم يكتفِ بذلك بل زاد عليه أن قال تلك القولةَ الشَّنيعة

(1) ابن السراج، الأصول في النحو: 1/ 210.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 159.
(3) القنوجي، فتح البيان: 8/ 195.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 241.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 241.

تهكُّمًا واستهزاءً بالبعث؛ فإنّه لم يكنْ جهلُهُ في تعجيزِ القادرِ كافيًا، حتّى زادَ عليه جعلَ العاجزِ قادرًا[1]، وقد يُراد بالقول هنا رسوخ قيلِه اعتقادًا في نفسه؛ "لأنّ المرء إنما يقول ما يعتقد"[2]. ويقوّي ذلك توكيد المقول باللام والنون الثقيلة.

دلالةُ التّعبيرِ بفعل القول ماضيًا:

الإيماءُ إلى خبرٍ غيبيٍّ مذكورٍ في اللّحاق

حكى الحقّ سبحانهُ مقالةَ هذا الكافرِ بقوله: ﴿وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ﴾ دون أن يقول: (ويقول لأوتين)؛ فجاءَ بفعلِ القولِ على صيغته الماضويةِ؛ للدّلالةِ على تحقّقها، فالماضي زمنٌ دالّ على التّحقّقِ والثّبوتِ، وأنّه حصلَ وانصرمَ، ولا مجالَ للتّنصّلِ منهُ، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ القائل سيُحاسب على قيله الثّابت له، أي: أنَّه سيموت على الكفر، ففيه بضميمةِ بقيَّة الآيات في اللّحاق إخبارٌ عن أمرٍ غيبيٍّ وهو الموت على الكفر، والحساب يوم القيامةِ.

معنى اللّام ودلالتها:

إذا اشتدَّ عنادُ الباطلِ قادَ إلى الوهمِ الباطل

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ داخلةٌ على جواب القسم المحذوف، والتقدير: (واللّه لأفعلنّ)[3]؛ لإفادةِ التّوكيدِ، ذلكَ أنّ هذا الكافرَ الناكب عن طرق الحقّ سبحانه كفرَ بآياتِ اللّه، ظنًّا أنّه منهجٌ حميدٌ يستجلبُ له العزّةَ والهناءَ، والرّزقَ في الدّنيا؛ ولشدّةِ إيمانه بذلكَ جاءَ بكلامه مؤكّدًا.

بلاغةُ مفردةِ الإيتاء في التّناسب السّياقيّ:

تلاؤم المعاني وتناسبُ الدّلالات أمارةُ بليغِ الاختيار

التّعبيرُ بقوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ دالّ على أنّ هذا الكافرَ قد بلغت حُمْقُه وطمعُهُ أنّه تألّى على اللّه تعالى في قوله هذا، ومن يفعلْ ذلكَ يكذّبْهُ اللّهُ، فيقولُ الحقّ سبحانهُ: هبْ أنّنا وهبنا له ما تمناهُ، فما بعدهُ إلّا أنْ نرثَهُ في عاقبتِه؛ فيأتي فردًا مجرّدًا ممّا كانَ لهُ، أو نثبتَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 242.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/ 58.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 411.

قولَهُ في صحيفته[1]، ونكتةُ اختيار مفردة الإيتاء هو بيانُ أنَّه يزعم أنَّه سيُؤتى المال والولد بسهولةٍ ويُسرٍ، وهذا يُعزِّز القول بأنَّ السياقَ لبيانِ تهكُّمه واستهزائه.

دلالةُ التّعبيرِ بصيغة المضارعِ ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾:

الغيبُ لله تعالى ومن زعَمَه لنفسِه فقد باءَ بالخسارةِ

في التّعبيرِ بالمضارعِ في قوله تعالى: ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ وفي دخولِ اللَّام على الفعل المضارع دلالةٌ على أنَّه أرادَ الإيتاءَ في المستقبل الأخرويِّ، ويُعزِّز ذلك ما جاء في روايات أسبابِ النزول، عندما تهكَّم العاصي بن وائل بخبَّاب ﷺ وأنكر البعث، فقال: إن كان هناك بعث فسوف أوتى مالًا وولدًا وأعطيك دَيْنَكَ، وعلى القولين فإن المقصودَ بالفعل المضارع الاستقبال، سواءٌ في الدُّنيا أم في الآخرة، وهو مذمومٌ في الحالين، لإخبارِه عن أمرٍ غيبيٍّ هو لله تعالى.

بلاغة التوكيد بالقسم والنون:

منشأ التوكيد إقناعُ الآخرين بقوّة الزَّعم

جملةُ ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ دالّةٌ على القسمِ من ذلكِ الأحمقِ[2] الواهم، وقد بلغَ من شدّةِ حمقه أن أكّدَ أوهامهُ بالقسمِ معَ ما يلزمُ من مؤكّداتٍ في جوابه، وادّعى تحقيقَ ما لا سبيلَ إلى العلم بحصوله، وما علمَ أنّ هذا التّوكيدَ فيه زيادةُ تشنيعٍ عليه، وتكذيبٍ لهُ[3]، والنّونُ في قوله تعالى: ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ هي نونُ التّوكيدِ الثَّقيلَةُ الّتي تقدّمها القسمُ[4]، واتّصالُها بالفعلِ المستقبلِ أخصّ؛ لأنّه أرادَ أن يكونَ إيتاؤه المالَ والولدَ في الآخرةِ[5] لا في الدّنيا؛ لأنّ حالهُ في الدّنيا واضحٌ أمرهُ، بخلافِ المستقبلِ الغائبِ؛ فإنّه غيرُ متّضحٍ، فهو أحوجُ إلى تأكيده بحسبِ زعمه واعتقاده.

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 40.
(2) ملا حويش، بيان المعاني: 2/ 176.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام، ص: 292.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4682.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 279.

بلاغةُ تنكيرِ ﴿مَالًا﴾ وإفراده:

طمعُ أهلِ الباطلِ أشدُّ من باطلِهم

نُكِّر لفظُ المالِ في قوله تعالى: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا﴾ للدلالةِ على التّكثيرِ؛ أي مالًا كثيرًا وعظيمًا[1]؛ فإنّ هذا النَّاكب عن طريقِ الحقّ والهدى أرادَ معَ تهكّمه واستهزائه أن يخبرَ بغناهُ يومَ البعثِ بأن يؤتى مالًا كثيرًا وولدًا.

وذكر المالَ بالإفرادِ، دون أن يقول: (أموالًا)، لبيان أنَّه مالٌ عظيمٌ بقطع النظر عن أنواعِه.

علَّةُ تقديمِ المال على الولد:

مراعاةِ سببِ النُّزولِ أثرٌ في النَّظم القرآنيّ

قُدِّم المالُ على الولدِ في قوله تعالى: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ من بابِ الاهتمامِ والتَّنويه بشأنِ النُّزولِ؛ فإنّ الآيةَ نازلةٌ في المالِ؛ لأنّها نزلت في العاص بنِ وائلٍ السّهميّ، وكانَ مَدينًا لخبَّابِ بنِ الأرتِ بمالٍ، فلمَّا طالبهُ قالَ لهُ: "فأَنْظِرني إلى يومِ القيامةِ حتّى أرجعَ إلى تلكَ الدَّارِ، فأقضيك هنالكَ حقّكَ"[2] من المالِ، وهذه عادة القرآن في تقديم المال على الولد.

نكتةُ ذكر الولد والمقصودُ المالُ:

استقصاءٌ لأسبابِ الفخرِ والقوة والمال

في قوله تعالى: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ذكر الولدَ وعطفه على المالِ فأعطاه حكمه، معَ أنّ المالَ هو المقصودُ في الآيةِ، إذ هو المطلوبُ من دائنه، وهو المعطى من مَدينه زعمًا منه لا الولدُ، وإنّما زادَ ذكرَ الولدِ افتخارًا وزيادةً في الإنكارِ[3]، ولإفادةِ أنَّ الولد هم من مصادر المال وأسبابه، فهو استقصاءٌ لأسبابِ الفخر والقوة والمال.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

غرضُ القائلِ المباهاةُ والتّكثيرُ وكلا القراءتينِ تحقّقهُ

اختلف القرَّاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾؛ فقرأ الجمهورُ ﴿وَوَلَدًا﴾ بفتح الواو واللام، وقرأ حمزةُ والكسائيّ ﴿وَوُلْدًا﴾

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 242.
(2) المجاشعي، النكت في القرآن الكريم، ص: 313.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 285.

بضمّ الواوِ وسكونِ اللّام[1]، فعلى قراءةِ الجمهورِ (الوَلَدُ) بالفتح اسمُ جمعٍ لمفرده ومعناه الابنُ والابنة، أمَّا قراءةُ الضّمّ والسّكونِ ﴿وَوُلْدًا﴾ فهو جمعٌ مكسّرٌ جمعُ (وَلَد) مثل (أَسَدٌ) و(أُسْدٌ)[2]، ومعناه يشمل الأهل[3]؛ فالولدُ على قراءةِ الجمهورِ بمعنى اسمِ الجمعِ، وعلى قراءةِ غيرهم دالّ على الجمعِ، وقائلهُما غرضهُ المباهاةُ والتّكثيرُ، وكِلا القراءتين تحقّقُ ذلكَ الغرضَ.

سرّ فصلِ الفعلِ ﴿أَطَّلَعَ﴾ عمَّا قبلهُ:

مقتضى المحاورة في الـرَّدِّ الفصل بين الجمل

فصلَ جملةَ ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ عمَّا قبلَها؛ لأنّها جوابٌ لكلامه، يدخلُ تحتَ بابِ الأسلوبِ الحكيم[4] بأن يحملَ كلامهُ على ظاهرِ عبارته، وعدًا بأن يقضي الدّينَ من المالِ الّذي سيجدهُ وهمًا عندَ بعثه[5]، وهي داخلةٌ في الرَّدِّ على هذا الزَّاعم، كأنَّه قال: عليه أن يطّلع الغيبَ أولًا قبل أن يعِدَ بامتلاك المال والولد؛ فضلًا عن تمليكِه.

ولَمَّا كانَ من جَراءته الشّنيعةِ أَنِ ادّعى بأن يؤتى مالًا وولدًا يومَ القيامةِ، جاءت جملةُ ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ ردًّا لمقالته الشّنعاءَ، وإظهارًا لبطلانِها بعدَما كانَ من العجبِ منها، فهلْ بلغَ منْ شأنِ هذا الكافرِ أنّهُ ارتقى إلى عالمِ الغيبِ الّذي استأثرَ به العليمُ الخبيرُ فادّعى أنْ يؤتى مالًا وولدًا عندَ بعثه، ثمَّ أقسمَ عليه[6] فرطًا في الجهلِ، وزيادةً في الكفرِ، وتوكيدًا للعنادِ؟.

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 319.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 159.
(3) مكي بن أبي طالب، الكشف: 2/ 92.
(4) "هو تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده، تنبيها على أنه الأولى بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها على أنه الأولى بحاله أو المهم له"، ينظر: القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 2/ 94.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 159.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 279.

غرضُ الاستفهام وبلاغته:

ادّعاءُ الغيبِ لا يصدرُ إلّا عن جاهلٍ يستحقُّ التّوبيخ ذي قولٍ منكرٍ

الأصلُ في قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ (أاطّلعَ) بهمزتين هما همزةُ الاستفهام، وهمزة الوصلِ الّتي سقطتْ فبقيتْ همزةُ الاستفهام[1] الّتي تفيدُ معنى الاستفهام الإنكاريّ التّعجبيّ[2]؛ إنكارِ أن يكونَ قد انكشفت لهُ الحُجبُ، فاطّلعَ الغيبَ، وهو ممَّا يتعجّبُ منهُ.

ويحتملُ الاستفهام أن يدلَّ على التّوبيخ، فهل "بلغَ من عظمةِ شأنه أنِ ارتقى إلى عِلْمِ الغيبِ الّذي توحّدَ به الواحدُ القهّارُ"[3]، واستأثرَ به العليمُ الخبيرُ؛ لأنّ ما ادّعاهُ لا يتوصّلُ به إلّا بهذا الشّيءِ، وهو بعيدٌ عنهُ؛ فالتّوبيخُ والتّبكيتُ مناسبٌ لحاله.

نكتةُ التّعبيرِ بالاطّلاعِ:

الاطّلاعُ إشرافٌ من مكانٍ عالٍ

جاء التّعبير بالاطّلاعِ لما فيه من معنى الإشرافِ على الشّيءِ، وأن تراهُ من مكانٍ مرتفعٍ عالٍ؛ لأنّ فعلهُ ﴿أَطَّلَعَ﴾ وزنهُ (افْتَعَل) دالّ على المبالغةِ[4] في فعلِ الطُّلوعِ من (طلعَ) إذا ارتقى جبلًا، أو مكانًا عاليًا؛ فجاءت صيغةُ الافتعالِ للمبالغةِ[5]، وفيه مزيدُ توبيخٍ وتكذيبٍ لزعمه.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيةِ:

عدالةُ الرَّدِّ البليغ الاستهزاءُ بالمستهزئِ

في قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ استعارةٌ مكنيةٌ، بأن شبّهَ الغيبَ المجهولَ المتّصفَ بالأسرارِ بجبلٍ عالٍ صعبِ المرتقى، تتحطّمُ عليه آمالُ الّذينَ يقصدون استشرافَ آفاقه، ثمَّ حذفَ الجبلَ، وذكرَ شيئًا منْ لوازمه وهوَ الاطّلاعُ والارتقاءُ؛ رومًا إلى تصويرِ سخريته البالغة، فإنَّ المخاطبَ بالآيةِ بلغَ منْ حقارته وتفاهته وصغارِ شأنه أن حاولَ هذا المرتقى العسيرِ المهولِ المحجوبِ بالأسرارِ الملفوفِ بالخفاءِ[6].

(1) السمين، الدرّ المصون: 7/ 636.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 159، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4683.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 39.
(4) وهو أحد معاني صيغة الافتعال، يُنظر: ابن الحاجب، الشافية في علم التصريف، ص: 21.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 282.
(6) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 150.

دلالةُ تعديةِ الفعلِ ﴿أَطَّلَعَ﴾ إلى المفعولِ:

تصويرُ الغيبِ على أنّه مشاهدٌ محسوسٌ زيادةً في التّهكُّم

الأصلُ في الفعلِ (اطَّلع) أن يكونَ لازمًا لا متعدّيًا، وآيةُ ذلكَ قولهُ تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥٥﴾ [الصافات: 54 - 55]، واستُعملَ الفعلُ ﴿أَطَّلَعَ﴾ متعدّيًا إلى المفعولِ في قوله: ﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ﴾ استعمالًا مجازيًّا على المشهورِ في رؤيةِ الشّيءِ الّذي يكونُ غيرَ مرئيٍّ لا يراهُ أحدٌ[1]، وهو من بابِ التّوسعِ في المعنى بما لا يؤدّيه حرفُ الجرّ، فكأنّه يطّلعُ الغيبَ كلّه من غيرِ تقييدٍ، بل ويعرفُ حقيقتَهُ[2]، فلَمَّا كانَ فعلُ الاطّلاعِ محتملًا معنى الرّؤيةِ العينيةِ تعدّى بنفسه، والمعنى: (هلْ رأى الغيبَ عيانًا؟) ولا شيءَ منْ ذلكَ حدثَ؛ إذْ إنّهُ لم يشاهد الغيبَ حقيقةً؛ فهوَ مطموسُ القلبِ والفكرِ[3]، وذلكَ غايةُ التّهكّمِ والاستهزاءِ.

دلالةُ اختيارِ لفظ ﴿ٱلۡغَيۡبَ﴾:

معرفةُ الغيبِ خاصّةٌ برسلِ الله الكرام

عبّرَ بـ﴿ٱلۡغَيۡبَ﴾ في قوله: ﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ﴾؛ لبيانِ أنَّ ما قاله لا يكون إلَّا بوحيٍ من اللّه تعالى، وهو ممَّا لم يوحَ إليه، ففيه توبيخٌ له، وتكذيبٌ لدعواه، وإيماءٌ إلى أنَّه ممنوعٌ من معرفةِ الغيب الذي لا يكون إلَّا للرسلِ الكرام.

معنى ﴿أَمۡ﴾ ودلالتها التّكذيبيّة:

التّدرّجُ في التّكذيبِ أشدُّ منه دفعةً واحدة

﴿أَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدًا﴾ متّصلةٌ، ومعناها معَ همزةِ ﴿أَطَّلَعَ﴾ أنّ أيًّا من الاطّلاعِ أو اتّخاذِ العهدِ منهُ تعالى لم يحصلْ، فالمعنى هنا أشدّ من الإنكارِ، بل هو التّكذيبُ والإفحامُ[4]، وهذا يدلُّ على أنَّ التَّدرُّج في التكذيبِ أشدُّ من تكذيب المكذِّب دفعةً واحدةً.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 282.
(2) نشوان الحميري، الحور العين، ص: 244.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4683.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام، ص: 291.

سرّ التّعبيرِ بالاتّخاذِ دونَ الأخذِ:

ليس للمخاصم شرفُ نوالِ العهدِ من الله تعالى

عبّرَ بالفعلِ ﴿ٱتَّخَذَ﴾، ولم يعبّرْ بفعلِ الأخذِ مجرّدًا؛ كأن يقول: (أم أخذ عند الله عهدًا)؛ لما تعطيه هذه الصّيغةُ (افْتَعَل) من معنى الجهدِ والمشقّةِ والتّكلّفِ[1]؛ فإنّه طلبَ وأجهدَ نفسهُ، وتكلّفَ وسعى للحصولِ على عهدِ الرّحمنِ لما يبتغيه[2]، وفي ذلكَ إقناطٌ وتيئيسٌ لهُ، فليسَ لمثله أن يكونَ لهُ من الرّحمنِ عهدٌ.

بلاغةُ حصرِ أقسامِ المعرفة:

تحصيلُ العلومِ إما اطلاعٌ معرفيٌّ أو إخبارٌ به

في قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ جمعٌ بينَ الاطّلاعِ واتّخاذِ العهدِ عندَ الحقِّ سبحانهُ، وفيه حصرٌ للأقسامِ الّتي منْ خلالها تتحصّلُ العلومُ لما يختصُّ للّه وحدهُ بالعلومِ، وفي نفيِ هاتينِ الوسيلتينِ بانَ كذبُ المدّعي والمدّعى عليه[3].

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيةِ:

تشبيهُ الوعدِ بصحيفةٍ مكتوبةٍ عهدًا وعقدًا موضوعةٍ عندَ الله

كانَ العربُ إذا أرادوا توثيقَ معاهداتهم جعلوهُ مكتوبًا في صحيفةٍ، ووضعوهُ في مكانٍ حصينٍ مكينٍ كصحيفةِ القطيعةِ معَ الرّسولِ ﷺ وأصحابه الّتي وضعتْ في الكعبةِ، فقولهُ: ﴿عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ منْ ذلكَ القبيلِ، فـ(عندَ) ظرفُ مكانٍ، وهوَ استعارةٌ مكنيةٌ شبّهَ فيها الوعدَ بصحيفةٍ مكتوبةٍ دالّةٍ على العهدِ والعقدِ، موضوعةٍ عندَ الحقِّ سبحانهُ[4].

دلالةُ تقديمِ الظّرفِ على المفعول:

كمالُ العهودِ ما صدرَ عن أعلى المقاماتِ

في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ قدّمَ الجارّ والمجرورَ ﴿عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ على المفعولِ ﴿عَهْدًا﴾: لإفادةِ التّخصيصِ؛ فإنّه إن كانَ صادقًا في دعواهُ فلا يكونُ كذلكَ ما لم يكنْ قد اتّخذَ عندَ اللّه لا

(1) الزمخشري، المفصل، ص: 371.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 6/ 114.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام، ص: 292.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 160 - 161.

عندَ غيره العهدَ؛ درءًا لما يمكنُ أن يكونَ قد اتّخذَ عهدًا عندَ غيرِ الله من أقرانه الكافرين، ولأمرٍ لفظي وهو مراعاة الفاصلةِ القرآنيةِ؛ فهذه الآية منتهيةٌ بالألفِ ﴿وَوَلَدًا﴾ و﴿عَهْدًا﴾ و﴿مَدًّا﴾، فقدّمَ الجارّ والمجرورَ رعايةً لها؛ لأنّها من مقتضياتِ الفصاحةِ، فضلًا عن الاهتمامِ باسمه تعالى.

نكتةُ اختيار اسم الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾:

التّعريضُ بالمشركين في إنكارِهم لصفة (الرَّحْمَنِ)

أُضيفَ الظّرفُ ﴿عِندَ﴾ إلى اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدًا﴾ للتّعريضِ بما أنكره المشركون من صفة الرحمن، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورًا ۝٦٠﴾ [الفرقان: 60]، بالإضافةِ إلى دلالةِ هذا الاسمِ على الرّحمةِ العامّةِ الشّاملةِ "بالإنعامِ على الطّائعِ، والانتقامِ من العاصي ثوابًا للطّائعِ"[1].

كما أنَّ التّعبيرَ بالرّحمنِ منْ دونِ الأسماءِ الأخرى لهُ سبحانهُ؛ لما في هذا الاسمِ الجليلِ منْ معاني البرِّ والرّحمةِ والإحسانِ، وفيه إيماءٌ إلى تلكَ المعاني لمنْ لم يكنْ لهُ عهدٌ بها، فما بالكَ بمنْ اتّخذَ عندَ الرّحمنِ عهدًا حقيقةً، وهم عبادهُ المؤمنونَ الموحّدونَ؛ فهوَ أجدرُ بالوفاءِ بالعهدِ[2].

نكتةُ تنكيرِ ﴿عَهۡدًا﴾:

التنكير لنفي أيِّ عهدٍ يُتصور صدوره

نكتةُ تنكيرِ العهدِ أنّهُ غيرُ مرادٍ تعيينه، وإنَّما المقصود بناء الاستنكارِ عليه، أي: (أتّخذ عهدًا - بقطع النّظر عن مضمونه - عند الحقِّ سبحانهُ وعهدَ إليه بأن يُدْخِلَهُ الجنّةَ؟)[3]، فالتنكير لنفي أيِّ عهدٍ يُتصوّر صدوره، فأفاد عموم مواصفات العهد، لا عموم العهود.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 242.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام، ص: 293.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 257، والثعلبي، الكشف والبيان: 17/ 452.

نكتةُ حذفِ متعلّقِ ﴿عَهۡدًا﴾:

في قولِه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدًا﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ فالعهدُ يقتضي وجودَ متعلّقٍ لهُ، وهو هنا محذوفٌ يدلُّ عليه السّياقُ، تقديرهُ: (بأنْ يعطيَه مالًا وولدًا)[1].

فائدةُ الفصلِ بينَ ﴿كَلَّاۚ﴾ وما قبلَها:

الـردعُ والتنبيه عـلى الادّعـاء الباطل

فصلَ الجملةَ المبدوءةَ بـ﴿كَلَّاۚ﴾ عمَّا قبلَها ردعًا وزجرًا وتنبيهًا على الخطأِ، فإنَّ المدّعيَ قدْ أخطأَ فيما يصوّرهُ لنفسه، ويتمنّى حصولهُ فليرتدعْ عنهُ[2]، ولينزجرْ أو سيلاقي مصيرهُ في العذابِ.

معنى ﴿كَلَّاۚ﴾ ودلالتها:

نـفـي إطـلاعِ الغيبِ واتّخاذِ العهدِ بالزّجر والتّوبيخ

لَمَّا كانَ كلٌ من اطّلاعِ الغيبِ واتّخاذِ العهدِ، فضلًا عمَّا ادّعاهُ لنفسه، وما يلزمُ عن اتّخاذِ العهدِ من القربِ منتفيًا لا واقعًا منهُ شيءٌ حقيقةً[3]، ولا ما ادّعاهُ وتقوّلهُ، وجاءَ بمنكرِ القولِ - نفاهُ بأداةِ الزجر ﴿كَلَّاۚ﴾[4]، فـ"(كلا) كلمة ردع، وزجر، وتكذيب لهذا الادعاء الفاسد، ونفيٌّ مؤكَّد لهذا الافتراء؛ فلن يؤتى هذا الشّقي مالًا ولا ولدًا، وإنما سيُكتب عليه قوله هذا مع ما يكتب من أقواله وأفعاله المنكرة، ثم يكون حصاد هذا كلّه لا مالًا ولا ولدًا، وإنما هو المزيد من العذاب، والمضاعفة من البلاء"[5].

ويجوزُ في ﴿كَلَّاۚ﴾ أن تكونَ دالةً على الإبطالِ بمعنى النّفي؛ فهي نقيضُ أحرفِ الجوابِ، مثل: إذن وأجلْ ونحوهما، وفيها إبطالُ الكلامِ الّذي قبلَها؛ فيؤتى بها اهتمامًا بالإبطالِ وتسريعه، ثمّ التّشويقِ إلى سماعِ الكلامِ الّذي سيأتي عقبها[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 160.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 40.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 242.
(4) العكبري، التبيان: 2/ 881.
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 768.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 161.

بلاغة الاستئناف البياني:

الوعيدُ والتَّهديد جزاءُ الاستهزاء والتَّهكم

لَمَّا تعجّبَ منْ حالِ الكافرِ، ونفى عنهُ ما ادّعاهُ منْ اطّلاعِ الغيبِ، واتّخاذِ العهدِ، لعلَّ سائلًا يسألُ: فماذا يكونُ لهُ بعدَ ذلكَ؟[1]، فجاء الجوابُ: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ ويدّعي؛ فهو استئنافٌ بيانيّ ناشئٌ عن ذلكَ السّؤالِ المفترضِ، وتكمن بلاغته في وعيدِ الكافرِ وتهديدِه، جزاءً على استهزائه وتهكُّمِه.

دلالةُ السّينِ في الفعلِ ﴿سَنَكْتُبُ﴾:

الإيذان بتوكيدِ التّهديدِ توبيخًا في الدنيا وعذابًا بعدَ الموتِ

الأصلُ في السّينِ أن تكونَ دالةً على التّنفيسِ والاستقبالِ[2]، وفي قوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ السّينُ مؤذنةً بالتّوكيدِ، توكيدِ التّهديدِ؛ فإنَّ المعنى "نحفظهُ عليه حفظَ منْ يكتبهُ؛ لنوبّخهُ به، ونعذبهُ عليه بعدَ الموتِ؛ فيظهرُ لهُ بعدَ طولِ الزّمانِ أنَّ ما كانَ فيه ضلالٌ يؤدي إلى الهلاكِ لا محالةَ"[3]، لأنَّا "سنكتبه في كتابه الذي يُقرأ عليه والذي ينطق بسيئاته حجة عليه قائمة لا يكون له سبيل لإنكاره، أي: نسجِّله عليه في صكِّه المنشور يوم القيامة"[4]، أي أنّه لا يكونُ ثمّةَ خللٌ في الانتصارِ مهما تطاولَ الزّمانُ وتأخّرَ[5].

قيمُ الهدايةِ مكنونةٌ في النَّظمِ الكريم

ويجوزُ أن تكونَ السّينُ في: ﴿سَنَكْتُبُ﴾ باقيةً على بابها من الاستقبالِ والمهلةِ، وكذا الكتابةُ، وغرضُ الإعلامِ بذلكَ حثًّا على أنْ يتوبَ العاصي قبلَ أنْ يكتبَ عليه عصيانهُ، وهذا منْ عمومِ رحمته تعالى[6]، وهو مناسبٌ لذكر لفظ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، ويصح أن يكون معنى التَّهديد هو الظَّاهر، ومعنى الإمهال لفسحِ مجال الهداية هو الضمني.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 243.
(2) السّين حرف يخلّص الفعل المضارع للاستقبال، يُنظر: السيرافي، شرح كتاب سيبويه: 1/ 31.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 243، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 162.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4683.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 40.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 243.

بلاغةُ الإسنادِ المجازي:

تعظيم الوعيد وتفخيم التهديد الصادر عن المجيد

إسنادُ فعلِ الكتابةِ ﴿سَنَكْتُبُ﴾ إليه ﷻ من بابِ المجازِ العقليّ؛ لأنَّ الكَتَبةَ هم الملائكةُ الكرامُ، فيكون المعنى على تقديرِ "سنأمرُ الحفظةَ بإثباته لنجازيه في الآخرةِ"[1]؛ فالعلاقةُ سببيَّةٌ بأن أمرهُمُ الحقُّ سبحانهُ بإثباتِ قوله ليجازيه به، وتظهر بلاغة الإسناد المجازي، في إرادةِ تعظيمِ الأمرِ وتهويله؛ فإنَّ المخاطبَ إذا ما علمَ أنَّ الحقَّ سبحانهُ بعظمته هوَ منْ سيكتبُ عليه أعمالهُ، خشيهُ وسارَ بمقتضى صراطه المستقيم.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿سَنَكْتُبُ﴾:

ما دام القولُ مستمرًّا فالكتابةُ على منواله مستمرَّة

التّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ في قوله: ﴿سَنَكْتُبُ﴾ دالّ على الحالِ والاستقبالِ؛ فإنّنا نحفظُ عليه ما اقترفتهُ يداهُ، ونوبخهُ على سوءِ صنيعه، ونعذبهُ بعدَ الموتِ، وكلّ ذلكَ دالٌّ على "أنّه كائنٌ لا محالةَ في المستقبلِ"[2]، كما أنَّ التَّعبيرَ بالمضارعِ يدلُّ على استمرار الكتابة في المستقبل، بدليل التعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿مَا يَقُولُ﴾، فالكتابة مستمرَّةٌ، كما أنَّ أقواله مستمرَّة.

توجيه المجازِ المرسلِ في ﴿سَنَكْتُبُ﴾:

الكتابةُ سببٌ في إيقاعِ العقوبةِ عند الإصرار عليها

التّعبيرُ عن العقابِ بالكتابةِ في قوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ من بابِ المجازِ المرسلِ، وعلاقتهُ السّببيةُ[3]، وهو تسميةُ الشّيءِ باسمِ سببِه؛ فإنّ كتابةَ ما ارتكبهُ المجرمُ سببٌ لما سينالهُ من عقوبةٍ ومصيرٍ[4] في أن يعذّبَ، ويزادَ له العذابُ، ويردُ علينا فردًا؛ فيُساقُ مع أقرانه المجرمينَ إلى جهنّمَ وِردًا.

---

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 317.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 447.

(3) المجاز المرسل "ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة ومناسبة غير المشابهة كاليد إذا استعملت في النعمة، لما جرت به العادة من صدورها عن الجارحة، وبواسطتها تصل إلى المقصود بها"، ينظر: الصعيدي، بغية الإيضاح: 3/ 462 - 463.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 279 - 280.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ: ﴿سَنَكْتُبُ﴾:

تشبيهُ إظهارِ الكتابةِ على رؤوسِ الأشهادِ بإحداثِها

جاء التّعبيرُ بالكتابةِ دونَ سواها؛ لأنّ فيها حفظًا؛ ولأنّ الكتابةَ لا تتأخّرُ عن القولِ؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: 18]، وفي الكتابةِ تنزيلُ إظهارِ الشّيءِ وإبرازه للعلنِ منزّلةَ إيجادِ الأمرِ المعدومِ بعدَ أَنْ لم يكنْ؛ فإنَّ كلًّا منهما إخراجٌ من الكمونِ إلى الظّهورِ، فهيَ استعارةٌ تبعيةٌ، شبّهَ فيها إظهارَ الكتابةِ على الملأِ بإحداثِها وإيجادِها كأن لم تكنْ[1].

لطيفةُ التّعبيرِ بالمضارع دون المصدر:

الإيذانُ بمضيِّ المصيرِ على مرِّ العصورِ

استعملَ في جملةِ ﴿مَا يَقُولُ﴾ دونَ التّعبيرِ بالمصدرِ الصّريحِ (قوله)؛ لإفادته زمنَ الحالِ والاستقبالِ فضلًا عن الحدثِ؛ فالمصدرُ الصّريحُ يكونُ خاليًا من الزّمنِ فيما لوْ عبّرَ بالقولِ، أمَّا التّعبيرُ بالمضارعِ فإنّ القولَ الصّادرَ منهُ يَشي بالاستمرارِ والتّجدّدِ.

ونكتةُ الإتيانِ بأداةِ ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا يَقُولُ﴾ الإشارةُ إلى علّةِ الحكمِ، وهو الكتابةُ ﴿سَنَكْتُبُ﴾، والمعنى أنَّ قولهُ: لأوتينّ مالًا وولدًا علّةٌ في أن كتبَها اللّهُ عليه فكانَ مصيرُه إلى النّارِ.

توجيهُ إسنادِ فعل القول للمفردِ:

العبرة بالعمومِ الدلالي لا الخصوص السياقي

أُسندَ فعلُ القولِ في قوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ إلى المفردِ دونَ الجمعِ؛ فلم يقل: (ما يقولون)؛ لأنّه لَمَّا كانَ النّفيُ عن الواحدِ المفردِ يُفهمُ النّفي عمَّا زادَ عليه اكتفى بالتّعبيرِ إفرادًا[2]، والعبرة بالعمومِ الدلالي لا الخصوص السياقي.

مناسبة التّعبيرِ بالمضارع بينَ ﴿سَنَكْتُبُ﴾ و﴿يَقُولُ﴾:

عدالةُ اللهِ تعالى شاملةٌ للتفاصيلِ والكليات

جاءَ بفعلِ الكتابةِ، وفعلِ القولِ مضارعَيْنِ في قوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾؛ لأنّ الكتابةَ لا تتأخرُ عن القولِ؛ فإنّ قولَ ذلكَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 279.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 243.

الكافرِ الجهولِ يكتبُ وقتَ قوله[1] من غيرِ تقديمٍ ولا تأخيرٍ؛ فأوردهُما مضارعين، وتوحي المضارعة في الفعلين أيضًا بديمومة الكتابة مع تجدّد فعل القول؛ فكلاهما مستمرَّان مقترنان، أي: بمجرد إحداث القول يُكتب، وهذا دليل العدالة الإلهية، وأنَّ الله ﷻ يحاسب عبادَه على أقوالِهم ساعة صدورها، فلا يؤخرها.

نكتةُ حذف متعلق فعل القول:

الإيجازُ في ذكرِ الألفاظِ دليل الوضوح في المعاني

الأصلُ في فعلِ القولِ ﴿مَا يَقُولُ﴾ أنْ يكونَ لهُ مفعولٌ، أوْ ما يسدُّ مسدّهُ، ولَمَّا كانَ ذكرُ مفعولِ القولِ ممَّا يطولُ؛ حُذفَ منْ بابِ الإيجازِ، والمعنى: (سنكتبُ ونرثُ ما سمَّاهُ منْ عينِ المالِ وعينِ الولدِ)[2].

بلاغةُ الكنايةِ:

القائلُ مُحاسبٌ على اعتقادِه وأعمالِه

فعلُ القولِ في قولِه تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ ليسَ لفظًا خارجًا من اللّسانِ فحسب، وإنّما هوَ كنايةٌ عن الاعتقادِ والعملِ، فالقائلُ مؤمنٌ بما يقول، معتقدٌ بصوابه، راجيًا وقوعَهُ، وآيةُ ذلكَ أنّهُ أخبرَ بكتابته وإثباته.

معنى الواوِ ودلالتها:

المدُّ بعد الكتابةِ مزيدُ عذابٍ وتخويفٍ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ﴾ للعطفِ، فجملةُ المدّ معطوفةٌ على قوله: ﴿سَنَكْتُبُ﴾[3]، وغايتُها زيادةُ عذابه وتخويفه، فبعدَ أن سجّلَ عليه جرمَهُ وما ادّعى؛ زادَهُ بأن يمدّ لهُ ما يكونُ سببًا لعذابه.

دلالةُ المضارع ﴿وَنَمُدُّ﴾:

أوردَ الفعلَ في قوله تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ مضارعًا؛ للدّلالةِ على معنى الاستمرارِ التّجدّديّ، أي: نزيدُ له في عذابه المستحقّ كلّ يومٍ، ونعذبُهُ من غيرِ انقطاعٍ[4].

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 287.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 162.
(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 149.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 256.

بلاغةُ إسنادِ فعلِ (المدّ) إلى نونِ العظمةِ:

من تمادى في باطلِه مُدَّ له العذابُ مدًّا

لَمَّا كانَ قولهُ تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ بمعنى أنّه تعالى يزيدهُ من العذابِ فوقَ عذابه جزاءً وفاقًا لما كانَ يدّعيه من إمدادِ نفسه بالمالِ والولدِ[1] ناسبَهُ أن يعبّرَ عنهُ بنونِ العظمةِ؛ فيكونُ مدّ العذابِ معظّمًا مخوفًا بموجبِ النّونِ الدّالةِ على عظمتِه سبحانَهُ.

غرضُ التّعبيرِ بمفردةِ (المدّ):

مناسبةُ طولِ العذابِ لطولِ الاستهزاءِ

عبّرَ بفعلِ المدّ في قوله تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ﴾؛ دلالةً على تطويلِ العذابِ لهُ؛ فهو يستحقّهُ ويستأهلهُ، ونزيدهُ من العذابِ ونضاعفُ لهُ، وهو جزاءُ الكافرين المستهزئين[2].

وللتّعبيرِ بفعلِ المدِّ غرضٌ وهوَ الإطالةُ والبسطُ والجذبُ، فمنْ خصائصِ لغةِ العربِ أنَّ الميمَ والدَّالَ أصلٌ يدلُّ على التّمدّدِ[3] بما يشملُ غيرها من الفروعِ؛ فالمعنى نطيلُ لهُ العذابَ ونبسطهُ.

لطيفةُ تقديمِ الجارّ والمجرورِ ﴿لَهُۥ﴾:

إيحاءٌ بأنّ العذابَ كلّه مخصوصٌ بهذا الكافرِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُۥ﴾ على ﴿مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدًّا﴾؛ للإيحاءِ بأنّ هذا العذابَ إنّما هو مخصّصٌ لهذا الكافرِ بالآياتِ، الّذي ادّعى ما ليسَ في وسعِه افتراءً على اللّه، وفي ذلك مزيدُ تحسيرٍ له، فكأنّه مخصوصٌ بالعذابِ دونَ الآخرين.

سر تعدية الفعل ﴿وَنَمُدُّ﴾ باللام:

ظاهر الاستدراج أنّه لصاحبه وحقيقته أنّه عليه

عدّي فعلُ المدّ باللّام بقوله: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ﴾، والأصلُ أنَّ العذابَ واقعٌ عليه؛ وذلك لأنّ القصدَ استدراجهُ بما هوَ سببٌ من النّعمِ الكثيرةِ أموالًا وأولادًا، والتي هي محبّبةً لهُ في الدّنيا، وهيَ عذابٌ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 17/ 219.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 40.
(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 146.

لهُ في الآخرةِ، وقدْ كدحَ في جمعِها، وخاصمَ عليها بما أوجبَ لهُ التّمادي في الكفرِ الموصلِ لعذابِ الآخرةِ[1].

بلاغةُ المجازِ المرسل:

تسميةُ الغرورِ بالعذابِ من تسمية الشَّيءِ بمآله

معنى قوله: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا﴾، أي: نمدّ له فيما اغترّ به مدًّا، فسمّى الغرورَ عذابًا من بابِ المجازِ المرسلِ؛ فإنّه لَمَّا كانَ الغرورُ والكفرُ سببًا لعذابه سمَّاهُ به، بذكرِ المسبَّبِ وإرادةِ السّببِ[2].

دلالةُ تقديمِ الجارّ والمجرورِ على المفعولِ:

زيادةُ الوعيد دليل زيادة التّهوين

في تقديمِ الجارّ والمجرورِ ﴿مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ على المفعولِ ﴿مَدّٗا﴾؛ دلالةٌ على الاهتمامِ؛ فإنَّ الحقَّ سبحانهُ يمدُّ لهذا النَّاكبِ عنْ طريقِ الحقِّ من العذابِ لا غيره، فكأنَّ العذابَ مختصٌّ به وحدهُ، كنايةً عنْ شدّةِ جرمه وغروره وتألّيه على اللّه، مع ما فيها من الإهانةِ بشأن الموعود بالعذابِ، فإنَّ زيادةَ الوعيدِ دليلُ زيادةِ التهوين.

دلالةُ التّقييدِ بالمفعولِ المطلقِ:

جاءَ بالمصدرِ أو المفعولِ المطلقِ[3] في قوله تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا﴾، توكيدًا لهذه الجملةِ دلالةً على غضبِ الحقّ سبحانهُ، وشدّةِ وعيده الكافرينَ[4].

دلالةُ تنكيرِ ﴿مَدّٗا﴾:

جاء لفظُ ﴿مَدّٗا﴾ منكَّرًا؛ لإفادةِ التّعظيمِ والتّهويلِ والتّخويفِ؛ والمعنى نطيلُ لهَ مدةَ العذابَ مدًّا عظيمًا مهولًا جزاءً لما كانَ من شأنِ ذلكَ الكافرِ الجهولِ الذي تألَّى على اللّه تعالى.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 243.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4683.

(3) المصدر اصطلاح القدماء، والمفعول المطلق اصطلاح المتأخرين، وهما واحد في المضمون وهو المصدر الدّال على فعله مع زمن مجهول، وغرضه توكيد الفعل، أو بيان النّوع، أو عدد المرات، كقولهم قرأتُ قراءتين طويلتين، فهي جملة مشتملة على الأنواع الثّلاثة، يُنظر: ابن جني، اللمع في العربية، ص: 48.

(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 40، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 280.

فائدةُ عطفِ جملةِ ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ على ما قبلَها:

الرَّدُّ على الزَّعمِ الكاذبِ بأنَّه سيؤتى مالًا وولدًا

عطفَ جملةَ ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ على ﴿وَنَمُدُّ﴾؛ فالمرادُ بالوراثةِ أنّه سيتركُ زعمهُ ذاكَ، وهي خطيئةٌ لازمةٌ لزومَ المالِ للإنسانِ محفوظةٌ عندهُ تعالى، كأنّه مالٌ ورثهُ من بعدهُ، وفيها ردٌّ على زعمه الكاذب بأنَّه سيؤتى مالًا وولدًا، فإذا كان ما له في الدُّنيا سيكون للّه تعالى، فمن باب أولى أن لا يكون شيءٌ في الآخرةِ.

دلالةُ إسنادِ فعلِ الميراثِ إلى نونِ العظمةِ:

الميراث الحقيقيُّ لله تعالى لا لأحدٍ من خلقه

أسندَ فعلَ الميراثِ إلى نونِ العظمةِ الدَّالّ عليه سبحانهُ في قوله: ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ "على إرادةِ أوليائه، أي: يرثهُ ذلكَ أولياؤهُ"[1] تحسيرًا لهُ في أنّه تمنّى على اللّه الأماني، ثمّ ذهبتْ لغيره، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ اللّه تعالى سيرثه الميراث الكامل في الدنيا على الحقيقة، وهوَ الّذي يورّثهُ العقابَ الأليمَ، والعذابَ المقيمَ في الآخرةِ[2].

دلالة اختيارِ مفردة الوراثة:

الإشعارُ بالحسرةِ قبل وقوعها أدعى إلى ترك أسبابها

التّعبيرُ بفعلِ الميراثِ ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ فيه دلالةٌ على الحسرةِ والحرمانِ لهذا المدّعي المُتَأَلّي على اللّه، فكأنَّ الحقّ سبحانهُ أعطاهُ مُنْيَتَهُ من المالِ والولدِ ما يعطي المؤمنينَ، ثمَّ سلبَهُ عنهُ، وأعطاهُ غيرهُ[3]؛ فيكونُ ذلكَ أدعى لشعوره بالحسرةِ والحرمانِ.

بلاغةُ المجازِ في الفعلِ ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾:

الإيماءُ إلى قربِ الموتِ والتهديد بقربِ هلاكه

أوردَ فعلَ الوراثةِ في قوله: ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ إيرادًا مجازيًا؛ فاستعمالهُ هنا في السّلبِ والأخذِ، أو كنايةً عن لازمه وهو الموتُ والهلاكُ، قصدًا إلى تذكيره بالموتِ، وتهديده بأنّ هلاكهُ قريبٌ محتومٌ[4]، وذكر ابن عطيّة أنّ فعلَ الوراثةِ في الآيةِ مستعارٌ؛ فإنَّ هذه الأشياءَ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 257.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4684.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 257.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 162.

التّي ظنَّ أنّهُ يؤتاها يومَ البعثِ سيرثُها الحقُّ سبحانهُ ما كانَ لهُ منها في حياته الدّنيا بإهلاكه وتركه لها[1].

بلاغةُ حذفِ حرفِ الجرّ:

الكافر المأفون موروثٌ فكيف بمالِه وولده

الأصلُ في فعل: ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ أن يتعدى بحرف (من) فيُقال: (نرثُ منهُ)؛ فهو على حذفِ حرفِ الجرّ، أي: نرثُ منهُ مالَهُ وولدَهُ[2]، وهو حذفٌ جارٍ على التّوسعِ في المعنى يرادُ منه المبالغةُ في بيانِ مصيرِ هذا الّذي تألّى على الله تعالى، فكأنّه جعلَ ذاتهُ نفسَها ممَّا يورثُ فضلًا عن ماله وولده.

موقعُ جملةِ ﴿مَا يَقُولُ﴾ من الإعرابِ:

جملةُ ﴿مَا يَقُولُ﴾ بدلُ اشتمالٍ من الضّميرِ في قوله: ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾[3]، أي ما يقولهُ ويدّعيه من المالِ والولدِ؛ فيحالُ بينهُ وبينَ ما يدّعيه بعدَ البعثِ والنّشورِ، كما فعلْنا بالموتِ مثلَما يحالُ الوارثُ بينَ ما يرثُ، وبينَ الموروثِ عنهُ[4].

بلاغةُ الكنايةِ:

الموروثُ كنايةٌ عن المالِ والولدِ

المرادُ من جملةِ ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ القولُ المذكورُ نفسهُ؛ لأنّه مبنيٌّ على أنّه مؤمنٌ به، معتقدٌ إيَّاهُ؛ فصدرَ عنهُ، وهو يرجو وقوعَهُ، وهو مستحيلٌ ممّن أنكرَ وقوعَ البعثِ، وكفرَ به[5]، فمعنى ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ ليسَ على وجه الحقيقةِ، إنّما المعنى مسمّى ما يقولُ؛ وهذا المسمّى هو المالُ والولدُ، ومنهُ قولُ المرءِ: أنا عندي كذا من المالِ، فتقولُ لهُ: ولي فوقّ ما تقولُ[6] وأكثرُ منهُ؛ فالقولُ كنايةٌ عن المالِ والولدِ؛ لأنّ القولَ نفسهُ لا يورثُ[7].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 31.
(2) مكي القيسي، مشكل إعراب القرآن: 2/ 460.
(3) السمين، الدرّ المصون: 7/ 640.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 243.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 280.
(6) الزمخشري، الكشاف: 3/ 40.
(7) السمين، الدرّ المصون: 7/ 640.

كنايةٌ عن التّمنّي والطّمعِ في المالِ والولدِ

ويحتملُ التّعبيرُ بـ﴿مَا يَقُولُ﴾ أن يكونَ كنايةً عن التّمنّي والطّمعِ أن يأتيهُ اللّهُ تعالى ما في نفسه من المالِ والولدِ، وبلغَ من طمعه أنّه تألّى على الله، وأقسمَ فكانَ مصيرهُ التّكذيبَ[1].

ومعنى (وراثةِ ما يقولُ ذلكَ الكافرُ)، أيْ: أنّنا نحفظُ عليه مقالتهُ تلكَ، ثمَّ يعاقبُ عليها، فكانَ منْ أمرِ هذا المجرم أنْ يحفظَ عليه ما يقولُ؛ فالوراثةُ بمعنى الحفظِ[2]؛ لقوله ﷺ: "وَأَنَّ العُلَماءَ هُم ورَثَةُ الأَنْبياءِ"[3].

علّةُ حذفِ مفعولِ ﴿يَقُولُ﴾:

مراعاةُ الإيجازِ منوطٌ بظهور معناه بأدنى تأمّلٍ

الأصلُ في فعلِ القولِ ﴿مَا يَقُولُ﴾ أنْ يكونَ لهُ مفعولٌ، أوْ ما يسدُّ مسدّهُ، ولمَّا كانَ ذكرُ مفعولِ القولِ ممَّا يطولُ؛ حُذِفَ منْ بابِ الإيجازِ[4].

دلالةُ المضارعةِ في الفعلِ ﴿يَقُولُ﴾:

كلُّ حادثٍ موروثٌ مهما تطاولتِ الأيّام

التّعبيرُ بالمضارعِ يدلُّ عادةً على الاستمرارِ التّجدّدي، وهوَ ما يكونُ هنا بقوله: ﴿مَا يَقُولُ﴾؛ فإنّهُ لَمَّا كانَ هذا الكافرُ مستمرًّا على التّفوه به[5]، والنّطقِ بمضمونه، رجاءَ وقوعه أوردهُ مضارعًا، والمراد بما يقول: ما سيُحدثه من أعمالٍ في الدُّنيا، أي: مهما صدر عنه على تطاول الأيام فإنَّه موروثٌ لا محالة.

معنى الواوِ في جملةِ ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾:

الإتيانُ فردًا بعد وراثةِ الأعمالِ كلِّها

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ عاطفةٌ[6]، فقد عطفتْ جملةَ إتيانه فردًا على جملةِ ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾، والمعنى أنّه يأتينا يومَ القيامةِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 40.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 31.
(3) رواه ابن ماجه في سننه، رقم الحديث: (223).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 162.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 280.
(6) الدعّاس، إعراب القرآن: 2/ 251.

"مسكينًا منعزلًا عن كلّ شيءٍ لا قدرةَ لهُ على مالٍ ولا ولدٍ، فلا عزّ لهُ، ولا قوةَ بشيءٍ منهما"[1]؛ لعلّةِ ما ورِثَهُ اللّهُ تعالى عمَّا قالهُ وادّعاهُ.

دلالةُ المضارعةِ في الفعلِ ﴿وَيَأْتِينَا﴾:

تصوير إتيان الكافر فردًا مجرَّدًا

لَمَّا كانَ الفعلُ المضارعُ دالًّا على الحالِ والاستقبالِ[2]، وكانَ تعبيرهُ دالًّا على أنّ مجيئَهُ إيَّانا سيكونُ يومَ القيامةِ والبعثِ[3]، أوردهُ بالفعلِ المضارعِ الدَّالِّ على ما يستقبلُ من الزّمانِ، ولنكتةِ تصوير إتيانه في ذلك اليوم المشهود.

سرّ التّعبيرِ بالإتيانِ دونَ المجيءِ:

إتيان الكافرِ مجرّدًا من المالِ والولدِ يسيرٌ على الله تعالى

في قوله تعالى: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ جاءَ بفعلِ الإتيانِ دونَ مرادفاته كالمجيءِ معَ تقاربهما في المعنى؛ فلأنَّ الإتيانَ يعبّرُ عن المجيءِ بسهولةٍ ويسرٍ[4] منْ غيرِ مشقّةٍ ولا كلفةٍ، وهوَ أخصُّ منْ مطلقِ المجيءِ؛ (فإنّكَ يا هذا ستجرّدُ منْ مالكَ وولدكَ، وتأتينا مجرّدًا؛ فذلكَ سهلٌ يسيرٌ علينا).

بلاغة الحال في لفظِ ﴿فَرْدًا﴾:

التَّعريضُ بحال المعاندِ في الدُّنيا

موقعُ ﴿فَرْدًا﴾ في قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ منصوبٌ على الحاليةِ[5]؛ فحالهُ يومَ القيامةِ أن يأتينا فقيرًا مسكينًا خاليًا من المالِ والولدِ والعددِ والعضدِ والعدّةِ والذّخيرةِ "لم نولّه سؤلهُ، ولم نؤته متمناهُ، فيجتمعُ عليه الخطبانِ: تبعةُ قوله ووبالهُ، وفقدُ المطموعِ فيه"[6]، ففيه تعريضٌ بحاله في الدنيا.

ومعنى ﴿فَرْدًا﴾ في الآيةِ أنّ الحقّ سبحانهُ يبعثهُ "ليسَ معهُ ما

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 243.
(2) الجرجاني، المفتاح في الصرف، ص: 53.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 280.
(4) الراغب، المفردات، ص: 212.
(5) النحاس، إعراب القرآن: 3/ 19.
(6) الزمخشري، الكشاف: 3/ 41.

يصيرُ به عددًا، إشارةً إلى أنّهُ يحشرُ كافرًا وحدهُ دونَ ولده، ولا مالَ لهُ"[1]، وفي ذلكَ مزيدٌ من حسرته وعذابه؛ فإنّه لَمَّا تباهى بالمالِ والولدِ ها هو يأتي من دونهما حقيرًا ذليلًا.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإيتاء والإعطاء:

الإعطاءُ للتّملّكِ والإيتاءُ دالّ على المشاركةِ

عبّرَ بفعلِ الإيتاءِ ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾، وعدلَ عن الإعطاءِ (لَأُعْطَيَنَّ)؛ لأنّ الإيتاءَ دالٌّ على المجيءِ بسهولةٍ ويُسْرٍ[2]، وليسَ كذلكَ معَ فعلِ الإعطاءِ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنه قد وقع في وهم هذا القائل الجاحد أنه سينال المال والولد في ذلك اليوم منْ غيرِ عنتٍ ولا مشقّةً، وفي ذلكَ استهزاءٌ منه وسخريةٌ بأنّه سيؤتى المالَ والولدَ، وما علمَ أنّ ذلك لا يُنالُ إلّا بأمرين: إطّلاعُ الغيبِ أو أن يتّخذَ عندَ اللّه عهدًا، وكلاهما معدومٌ عندَه؛ ولذلكَ جاءَ التّعجيبُ من حالِه بقولِه: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾.

والفرقُ بينَ الإيتاءِ والإعطاءِ أنّ الإعطاءَ دالٌّ على التّملّكِ كقولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: 1] يعطيه من يشاءُ، ويمنعُ من يشاءُ فيما عبّرَ عنه القرآنُ الكريمُ بقولِه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحجر: 87] فأمّته مشاركون له في فوائدِه[3]، ولَمَّا كانَ من حديثِ هذا الكافرِ قولُه: "فأنظرني إلى يومِ القيامةِ حتّى أرجعَ إلى تلكَ الدّارِ، فأقضيك هنالك حقّك"[4] دلّ على أنّ هذا المالَ ليسَ ملكًا له، بل سيدفعُه لمن طالبَه به قضاءً.

العهدُ أمتنُ وأرسخُ من الوعدِ وهو أشملُ من الميثاقِ لصدورِه من الطّرفين

العهدُ والوعدُ والميثاق:

ذكرَت لفظةُ العهدِ في قولِه تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 163.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 60.
(3) العسكري، الفروق اللغوية: 86 - 87.
(4) المجاشعي، النكت في القرآن الكريم، ص: 313.

ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾، ومعناه كما وردَ عندَ المفسرين كلمةُ الشّهادةِ، أو العملُ الصَّالحُ[1]، والفرقُ بينَ العهدِ والوعدِ أنّ العهدَ يقتضي الوفاءَ، ويكونُ مقترنًا بالشّروطِ، والوعدُ يقتضي الإنجازَ؛ فالعهدُ أمتنُ وأرسخُ؛ ولذلك يقالُ: نقضَ العهدَ، وأخلفَ الوعدَ[2]، فعبّرَ بالعهدِ في الآيةِ؛ لأنّه عهدٌ منه سبحانَه، أمَّا الفرقُ بينَ العهدِ والميثاقِ، فالثّاني توكيدٌ للأوّلِ من جهةٍ، والميثاقُ يكونُ حالًا من طرفٍ واحدٍ، فيما يكونُ العهدُ من طرفين[3]، والمتأمّلُ في الآية وما نفاهُ الحقّ سبحانَه بطريقِ التّعجيبِ يلمحُ أنّه ربّما كانَ العهدُ الّذي عوّلَ عليه هذا النَّاكبُ الجاحدُ قد كانَ من طرفٍ واحدٍ؛ لأنّ الحقيقةَ أنّ المولى سبحانَه لم يعطِه العهدَ بأن يؤتيَه مالًا وولدًا، وأنّى يكونُ ذلك لمن أعرضَ عن آياتِنا وكفرَ بها.

المدّ والإمداد والبسط:

المـــدّ لـسـيـاقِ العذابِ والإمدادُ يـأتي في سياقِ الخيرِ والبسطُ عـامٌّ في الأمـورِ كلّها

في قولِه تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا﴾ استعملَ فعلَ المدّ من المددِ، ومعناهُ الزّيادةُ، زيادةُ العذابِ، وزيادةُ مدّته، والفرقُ بينَهُ وبينَ الإمدادِ أنَّ المدَّ يكونُ في سياقِ العذابِ[4]، أمَّا الإمدادُ فيكونُ في سياقِ الخيرِ[5]، ولمَّا كانَ السّياقُ هنا في العذابِ أعرضَ عن الإمدادِ وجاءَ بالمدِّ، أمَّا معنى البسطِ: فهوَ النّشرُ والتّوسيعُ كنشرِ الثّوبِ، والبساطُ الّذي يطلقُ على كلِّ شيءٍ مبسوطٍ، ومنهُ بسطُ اليدِ[6]، ويُلحظُ أنَّ البسطَ متعلّقٌ بمثلِ هذه الأشياءِ، فهوَ عامٌّ في الأمورِ كلّها؛ فالمدُّ أليقُ منهُ في هذا الموضعِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 279.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 379.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 57.
(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 16/ 115.
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 71.
(6) الراغب، المفردات، ص: 123.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والثلاثون،
سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 31 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-73-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 31 : المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-73-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9736546 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»